الفصل

6

الحلــول

انضم فرويد إلى منظمة بناي بريث B'nai B'rith في ڤيينا وهي منظمة يهودية إخائية في شهر أيلول من عام 1897. مهمة هذه المنظمة هي العمل على «رفع المكانة النفسية والأخلاقية للشخصية لدى الناس الذين ينتمون إلى ديننا» وضمن هذا الإطار كان بمقدور فرويد أن يستمتع بصحبة يهود آخرين من غير أن يضطر إلى حضور الشعائر الدينية. وعلى الفور أضاف فرويد اجتماعات البناي بريث التي تتم كل أسبوعين إلى برنامجه المحدد جداً. وبعد 40 عاماً تقريباً كتب فرويد في رسالة وجهها إلى أعضاء منظمة بناي بريث قال فيها «أصبحت بسرعة واحداً منكم مستمتعاً بعطفكم ولم أحمل أبداً القدوم إلى المكان المحاط بالعدائية من حوله حيث كنت متأكداً أنني سأجد فيه الأصحاب». ألقى فرويد 21 محاضرة لاقت الإعجاب

الصفحة الأولى من الرسالة التي بعث بها فرويد إلى فلييس بتاريخ 21 أيلول من عام 1897، وفيها بدأ فرويد بالتعبير عن شكوكه في مصداقية بعض أعمال فلييس.

في محفل بناي بريث خلال عدة أعوام. حتى إنه تذكر إحدى الجماعات التي كانت متحمسة لأعماله وصفقت له تصفيقاً حاراً، وهذا مخالف جداً لذكرياته عن الحضور الآخرين الذين عرفهم في ڤيينا.

كان سعيداً في كسب الأصدقاء في الوقت الذي كان عمله وحياته الشخصية في حالة اضطراب. وفي عام 1897 بدأ فرويد يساوره الشك في نظرية الإغواء في الهستيريا. وكانت له أسبابه المتعددة للتساؤل عن هذه النظرية. كان أولها حقيقة عدم إظهار علاجه القدرة على شفاء مرضاه تماماً.

إذ أن غالبية مرضاه غادروا العلاج وهم في منتصف الطريق أو قد تماثلوا للشفاء جزئياً فقط. أولئك الذين استمروا في مقاومة محاولات فرويد لاستخراج ما ادعاه «خبراتهم الطفولية المكبوتة». كذلك تضمنت نظرية الإغواء أن الأب في الأسرة هو الذي جلب على المريض فيما بعد الهستيريا. مع أن أشقاء وشقيقات فرويد ذاته قد بدت عندهم أعراض هستيرية ولم يستطع تصديق فكرة اعتداء أبيه على شقيقاته.

كان عقله منشغلاً بمقدار الاعتداء الجنسي في مرحلة الطفولة الذي سيدفع إليه بعدد كبير من المرضى العصابيين. وفي شهر أيلول من عام 1897 كتب فرويد إلى فلييس عن «السر العظيم» الذي توصل إليه عن طريق التخمين في صيف ذلك العام. أيقن فرويد أن معظم

قصص مرضاه عن الإغواء غير صحيحة بكل بساطة.

بعد التخلي عن نظرية الإغواء. أصبح بمقدور فرويد أن يستمع إلى تداعيات مرضاه الحرة وإلى قصصهم المطولة لا على أنها حقائق مطلقة وإنما رمز يرمز إلى رسالة عميقة أخرى. ولكن ما هي هذه الرسالة؟ وما هو الأساس الحقيقي للمرض النفسي؟ قرر فرويد أن يبحث عن أسرار الحياة النفسية بذاته.

كان عنده سبب وجيه لذلك فمنذ وفاة والده كانت تعاوده حالة الاكتئاب بين الفينة والأخرى، كما عانى من أعراض عصابية متنوعة خلال معظم حياته وهو في سن الرشد، فقد عانى قلبه من التسارع ومعدته من الألم ورأسه من صداع الشقيقة.

حينما ساءت الأمور بالنسبة لعمل فرويد أصبح نكد المزاج متذمراً من الكآبة والضعف العام إلى درجة أنه لم يعد قادراً على إنهاء عملية التحليل لأي مريض من مرضاه. وأضحى هو ذاته الأمل الأول والأخير لنفسه.

لم يكن فرويد متفائلاً فقد بدا ذلك جلياً في رسالته إلى فلييس في شهر تشرين الثاني منذ عام 1897 حيث قال «أستطيع أن أحلل نفسي فقط إذا حصلت على معلومات موضوعية... إن تحليل المرء لنفسه تحليلاً نفسياً حقيقياً أمر مستحيل، زد على ذلك عدم وجود مرض نفسي». وللبحث عن مفاتيح المعرفة الموضوعية في أي طريق كانت، استخدم فرويد مصادر كثيرة لهذه الغاية من مثل

الأخطاء الإعلانية التي كان يرتكبها وهو يكتب أو الأخطاء اللفظية التي كان يقع بها وهو يتحدث أو الأحداث التي ينسى فيها أسماء الأشخاص أو الاقتباسات من الكتب. اشتهرت هذه الأخطاء بما عرف باسم «الهفوات أو الزلات الفرويدية». تظهر هذه الأخطاء عندما تهيمن الرغبات أو النوايا اللاشعورية على الرغبات أو النوايا الشعورية. حلل فرويد أحلامه أيضاً كما أخذ يتصيد في ذكريات طفولته.

عندما بحث فرويد عن مفاتيح عن كيفية عمل عقله هو من خلال الأخطاء التي كان يرتكبها في الحياة اليومية توصل إلى واحدة من أهم مرضيات التحليل النفسي وهي أن لكل فعل سبب. إذ أن فرويد لا يؤمن بالأفعال العشوائية ولا يقبل بفكرة أن يقول المرء شيئاً من غير سبب على الإطلاق. حتى التداعي الحر لم يكن حراً تماماً. إن أي شيء يقوله المريض ما هو إلا نتيجة لعمليات لاشعورية مختلطة مع الأحداث اليومية. يعطي علم النفس الفرويدي للإرادة الحرة حجماً صغيراً جداً.

حالما باشر فرويد في معاينة ذكرياته، عادت إليه مجتمعة. وفجأة تذكر فرويد مربيته الكاثولوكية وخصامه مع أبناء إخوته وأخواته والنظرة الخاطفة لفرج أمه أثناء رحلة في القطار عندما كان في سن الرابعة من العمر. لقد كانت ذكريات فرويد عن المربية التي دربته على استخدام دورة المياه لها أهمية خاصة. استطاع فرويد أن يثبّت

كثيراً من الخبرات التي تذكرها مع مربيته عن طريق الاستفسار من أمه.

وعلى الرغم من عدم صحة نظرية الإغواء كما اعتقد فرويد، فقد أظهرت تأكيدات أمه لهذه الأحداث المبكرة أنه يمكن استخدام تقانات التحليل النفسي للكشف عن ذكريات الطفولة الحقيقية وبخاصة الذكريات الجنسية.

وجد فرويد دليلاً على الدوافع الجنسية لدى الأطفال الرضع في حياته هو.

فقد أحب أمه وشعر بالرغبة الجنسية تجاهها وهو طفل. وتمنى أن يموت أباه وإخوته وكل الأنداد الآخرين حتى يحظى بأمه لوحده. أعطى فرويد فيما بعد عنواناً لهذه المجموعة من الصراعات هو عقدة أوديب Oedipus complex. استناداً إلى الأسطورة الإغريقية يتم إبعاد أوديب عن ذويه عند ولادته لينشأ في كنف أناس غرباء، وبعد ذلك يقتل أوديب أباه عن غير قصد ويتزوج أمه. فيما بعد أضحت فكرة الجنسية عند الأطفال الرضع وأسطورة الأسرة الخاصة بعقدة أوديب تلعبان دوراً مركزياً في نظريات فرويد اللاحقة عن النمو عند الأطفال.

وفي بحث نشره في عام 1898 كتب فرويد «إننا نرتكب خطأ في تجاهلنا للحياة الجنسية عند الأطفال برمتها ومن خلال خبرتي وجدت أن الأطفال قادرين على القيام بكل أنواع النشاط النفسي وبكثير من أنواع النشاط الجسدي أيضاً».

إن هذا التركيز على الرغبة بدلاً من التركيز على الرضى النفسي كان بمثابة نقلة نوعية في تفكير فرويد. كان دائماً يعتقد أن بعض العصابات قد نجمت عن رضى حقيقي. وفي سنوات العقد الذي يبدأ بعام 1890 كان متأكداً أن اثنتين على الأقل من مريضاته قد تعرضتا للاعتداء الجنسي من قبل أبويهما. إلا أن معظم العُصابات في رأي فرويد تحدث بسبب حركة الطاقة الجنسية داخل الطفل.

وبينما كان هو يبحث في ذاكرته، كان يحلم أيضاً، وغالباً ما كان يتذكر أحلامه وكان قد احتفظ بسجل خاص بأحلامه لسنوات خلت. وفي «حلم حقن إيرما» بدأ فرويد في النظر إلى الأحلام على أنها تلبية وتحقق للرغبات. غير أنه تأكد أيضاً أن كثيراً من الأحلام كانت كوابيس وأحلاماً غير سعيدة بشكل صارخ. وبعد طول تفكير، توصل فرويد إلى أن الأحلام ليست دائماً تعابير عن أماني أو رغبات شعورية، إذ لا بد أن يكون هناك مستوى ثانٍ من الحافزية، وربما أنواعاً مختلفة جداً عن تلك الرغبات التي يسمح الناس لأنفسهم أن يفكروا بها.

تحتوي جميع الأحلام على بعض العناصر المشتركة، كما جاء في كتابات فرويد، يبدأ كل حلم بذاكرة من ذكريات الطفولة، وربما من نوع عقدة أوديب أو خبرة ما أخرى مشحونة عاطفياً. ومع مرور اليوم السابق سيكون الحالم قد حاز على بعض الخبرات ذات الصلة بتلك

الذكريات. تشكل هذه الأحداث ما يعرف باسم «أثر النهار» day residve في الحلم. وباجتماع ذكريات الطفولة مع أثر النهار يتشكل المحتوى الأساسي للحلم.

لو كانت الأحلام مجرد أجزاء مجتمعة من الذكريات ومن غداء البارحة لكان تفسير الحلم أمراً سهلاً نوعاً ما. إلا أن الذي يحدث على الأغلب هو تعرض رغبات وذكريات الطفولة للكتب والتخفي من الشعور. لقد بنى الحالم ذكراً كان أم أنثى دفاعات ضد عملية التعرف على رغباته الحقيقية. وفي الأحلام يتم اختباء هذه الرغبات بواسطة آلية مراقبة داخلية، والتي تقوم بتشويه معنى الحلم بطرائق عديدة. ومن الممكن أن تقوم آلية المراقبة هذه بدمج سمات كثير من الأشخاص المختلفين في شخصية واحدة.

يمكن لآلية المراقبة أن تحول أقوال أو أفعال شخص إلى شخص آخر على نحو متبادل في الحلم. كما يمكن لآلية المراقبة أن تستبدل الشخصيات بالرموز في الأحلام، إذ من الممكن أن يصبح الأب ملكاً، والأم خزانة، والطفل حيواناً. كذلك تقوم آلية المراقبة بتحويل الأفكار اللفظية إلى صور بصرية، بينما تستطيع رموز أخرى أن تأخذ شكل تلميحات وتوريات لفظية والمثال على ذلك ما أورده فرويد عن حالة رجل شاهد في حلمه عظماً مكسورةً في الوقت الذي كان فيه قلقاً على انهيار العلاقة الزوجية.

حالما ينبثق الحلم عن هذه العمليات يكون المحتوى

الخفي أو الصراع الداخلي في اللاشعور قد تنكر وتحول إلى محتوى رمزي أو ظاهر. وعندما يصحو الحالم يخضع الحلم لنوع آخر من التنقيح. إذ يقحم الحالم المنطق على الحلم ليصبح معقولاً. وختاماً، كما كتب فرويد. فإن «الحلم تحقيق (متنكر) لرغبة (مكبوتة أو مقموعة)».

وطالما لا تظهر الرغبات الحقيقية للحالم في الحلم أبداً، فإنه يتوجب على مفسر الحلم أن يحل لغز التحولات غير المتوقعة للمحتوى الخفي. ذكر فرويد في كتابه (تفسير الأحلام) عدداً من الطرائق يمكن للرغبات فيها أن تصبح كوابيساً. أما الصنف الآخر شيوعاً من الأحلام فقد كانت مجموعة الأحلام التي حلم بها المرضى الذين أرادوا أن يبطلوا نظريات فرويد. وأكثر نوع شائع من الأحلام المزعجة كان حلم القلق. إذ ادعى فرويد أن بعض أحلام القلق هي نتيجة للرغبات الجنسية، وبخاصة حينما تكشف الرغبة عن نفسها بشكل جلي جداً في الحلم. وفي البعض الآخر من أحلام القلق تكون حالة الخوف أو القلق حاضرة قبل بدء الحلم، عندئذ تستخدم حالة القلق، كأي أثر آخر للنهار، من أجل إظهار رغبة مكبوتة. لم يعتقد فرويد في البداية أن جميع الأحلام كانت نتيجة لرغبات جنسية، فقد بدت أحلام الجوع والحاجات الأخرى جلية في كتابه تفسير الأحلام. لكنه توصل لاحقاً إلى أن جميع الأحلام التي ليس لها معنى واضحاً هي أحلام جنسية بطبيعتها.

استمتع فرويد باشتغاله في تفسير الأحلام. إذ اشتمل تفسير الأحلام على حل الألغاز والتوريات والدعابات يستثنى من ذلك حالة أحلام الأطفال. إذ لم يشكل الأطفال بعد آليات مراقبة داخلية، كما أن أحلامهم بريئة وهي تَحقُّقٍ للرغبة لم يتخلله دهاء الكبار ـ تضورت ابنة فرويد الصغرى أنَّا في أحد المرات جوعاً، وبعد ذلك أتخمت معدتها بثمار الفريز (الفراولة) وتقيأت. وفي تلك الليلة تذكرت في نومها عندما كانت في عمر التاسعة عشر شهراً عبارات طفولية باللغة الألمانية تمت ترجمتها على وجه التقريب كما يلي «أنَّا فرويد، وفريز، وفريز بري، وعجة البيض، وحلوى البودن». لقد صرحت أنَّا عن قائمتها المفضلة من الأطعمة في أحلامها كما أكدت على طعامها المفضل تأكيداً مضاعفاً.

تم نشر كتاب تفسير الأحلام في عام 1899، وهو بلا شك أهم وأكثر أعمال فرويد شعبية. وكما جاء في كتابات فرويد في طبعة لاحقة «تفسير الأحلام هو الطريق الملكية لمعرفة الأنشطة اللاشعورية للعقل». حصل الكتاب على بعض المراجعات الممتازة، ومع ذلك اتفق بعض النقاد مع رأي فرويد فيه الذي بعث به إلى فلييس «هناك الكثير من الأشياء الجديدة، التي لا تصدق وهناك القليل من البراهين القاطعة».

لقد كانت تحليلات فرويد للأحلام، مثل دراسات الحالة التي أجراها، فناً في الملاحظة عن قرب والتفكير

المتأني. كان كل حلم وكل حالم متميزاً عن غيره، إلا أن كل واحد منها قدم بياناتٍ واضحة عن مبدأ أعم وأشمل. ومع ذلك لم يكن لتحليل الأحلام قدرة تنبؤية مثلما كان وضع دراسة الحالة. ولم يكن بمقدور فرويد أن يختبر حياة الشخص ويخبر عن نوع الأحلام التي يمكن أن يراها في المنام. لقد تمت جميع تفسيراته بعد وقوع الحلم. ولعل البرهان الوحيد على أن تفسيرات فرويد كانت صحيحة هو إلى أي حد تبدو قابلة للتصديق. وإذا أخذنا أعمال فرويد على الأحلام وعلى الهفوات الفرويدية وعقدة أوديب ونظرياته عن الجنسية الطفولية المبكرة على وجه الإجمال لوجدنا أنها تشكل رؤية جديدة عن العقل. وفي هذه النظرة تسيطر الرغبات اللاشعورية على أحلام الإنسان والأعراض العصابية وعلى كل خطأ بسيط وتدخل هذه الرغبات بسرعة إلى حياتنا اليومية، ونستطيع أن نقرأها إذا فقط أردنا فعل ذلك. إن مصدر هذه الرغبات هو دافع بيولوجي للتكاثر لا ينضب.

إن التمييز بين العقل والجسد أو الطبيعة والروح الذي عمره عمر الدهر قد أضحى بالنسبة إلى فرويد عديم الفائدة. المهم بالنسبة إليه هو أن اللاشعور يقبع تحت كل فكرة.

ومع انتهاء فرويد من كتابة تفسير الأحلام كان قد حلل شخصيته منذ ثلاثة أعوام تقريباً. لم يمنع هذا التمحيص الدقيق بالذات فرويد من أن يكون عصبياً

ومزاحياً ومكتئباً حينما صدرت أول طبعة للكتاب. أعرب فرويد عن تذمره من تعرض الكتاب للتجاهل ولسوء الفهم. كان قلقاً على أموره المالية ومتحسراً على حقيقة أنه بلغ من العمر 44 عاماً ولم يذع صيته بعد. شعر فرويد بالتعاسة إلا أنه كان يمر أيضاً في حالة انتقالية عميقة فقد كان على وشك افتقاد أبيه الثاني.

بدأ إعجاب فرويد بصديقه فلييس يتضاءل رويداً رويداً، إذ أخذت كتاباته ورسائله بالإقلال والاقتضاب مع الرجل الذي كان يدعوه في يوم من الأيام «ويلهالم الأعز». عوَّل فرويد في البداية كثيراً على دعم ونصائح صديقه ومع مرور الوقت أصاب العلاقة القلبية التي تربط بينهما الفتور، ومالت إلى التنافس أكثر. كتب فرويد في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب تفسير الأحلام في عام 1908. أما عن «رد فعلي على موت أبي الذي يمثل الحدث الأهم ألا وهو الافتقاد النهائي لحياة رجل». بعد وفاة يعقوب فرويد شكّل فلييس في حياة فرويد الرمز الأول للأب وكما جرى في حالتي بروك وبروير من قبل شعر فرويد بالحاجة سريعاً إلى التمرد وإلى وضع هذا الأب في مكانه الطبيعي.

في شهر أيلول من عام 1951 استطاع فرويد أن يتغلب على أمزجته المتقلبة بسفره إلى روما. كان يحلم طوال حياته بزيارة روما لكنه لم يمتلك أبداً الشجاعة اللازمة لذلك. فمنذ عهد المدرسة وتعلقه بشخص هانيبال مروراً

بما جمعه من تحف وأشياء فنية ورومانية كان فرويد مأخوذاً دائماً بسحر هذا المركز القديم للحضارة. أمضى فرويد شهوراً في دراسة خرائط روما عبر الأعوام وسافر بشكل مطول إلى المناطق الشمالية والوسطى من إيطاليا. أطلق فيما بعد على زيارته الأولى إلى روما اسم «قمة حياتي». أعجب بأعمال ليوناردو داڤنشي Leonardo da Vinci ومايكل أنجلو Michel angelo كما زار الڤاتيكان والسراديب الرومانية، وهي شبكة ضخمة من الممرات تحت الأرض استخدمها المسيحيون القدماء للعبادة ولدفن الموتى. زار فرويد روما مرات عديدة بعد ذلك خلال حياته، لكن هذه الزيارة الأولى قد تركت عنده أعظم الانطباع. وأخذ يكتسب الشجاعة للسفر والتنقل حيث يشاء وللدفاع عن مهنته العلمية.

وفي أثناء كتابته للدراسات عن الهستيريا ولتفسير الأحلام، كان فرويد إما مهملاً أو متجاهلاً مركزه المهتز في جامعة ڤيينا. وإذا عدنا إلى عام 1885 وذلك قبل أن يسافر من أجل العمل مع تشاركو، كان فرويد قد منح منصب بريڤيتدوزانت Privatdozent وهو ما يقابل مرتبة الأستاذ الجامعي المستجد. ألقى فرويد في حينه محاضرات غير مأجورة في علم الأعصاب وهو تخصصه في الجامعة. وببساطة لم يكن لديه أصدقاء ذوي نفوذ كاف لدفع وضعه المهني قدماً. فيما كان يحتاج الأستاذ الجامعي المستجد وسطياً إلى الانتظار 8 أعوام تقريباً لينال لقب أستاذ فوق العادة فإن فرويد في عام 1951 يكون قد

انتظر 11 عاماً. في عام 1897 وافقت هيئة كلية الطب على ترفيعه بنسبة 22 إلى 10 صوتاً. غير أن الحصول على لقب أستاذ مرشح احتاج إلى موافقة وزارة التربية التي أخفقت في القيام بهذا الدور في حالة فرويد.

لم يعد فرويد راغباً في مساعدة نفسه. ورأى في المنام نفسه عالماً اشتهر بنظرياته الفذة وليس سبب حصوله على الترفيع الجامعي. إلا أن فرويد كان يهودياً في الوقت الذي كان فيه محافظ ڤيينا كارل لوجر Karl Lueger وسياسيون نمساويون بارزون آخرون يناصرون حملة الكراهية ضد اليهود. كما أن نظريات فرويد عن الجنسية والهستيريا، وإعجابه القديم بالكوكائين وحتى مناصرته لتشاركو قد جلبت عليه أعداء. وحينما نصحه أحد أساتذته القدامى لأن يجد من يقدم له الدعم الشخصي بدأ فرويد أخيراً في البحث عن معين.

إن قضاء العقد الماضي في معالجة زوجات وبنات وأرامل الطبقة الحاكمة والثرية في ڤيينا قد زوده بسلاح فعال. إذ أقنعت واحدة من مريضاته السابقات وهي البارونة فيرستيل Ferstel وزارة التربية من أجل منح لقب الأستاذية إلى طبيبها المدلل مقابل لوحة فنية من معرضها الخاص قدمتها للوزارة.

ومع ترقية فرويد إلى منصب أستاذ جامعي فوق العادة، أخذت مكانته بالصعود، وكانت الترقية عبارة عن التصويت على الثقة من أجل فرويد من قبل كلية الطب،

فأصبح قادراً على رفع رسوم العلاج الذي يقدمه.

وبعد انتهاء المحنة، ندب فرويد حظه قائلاً، «لو أنني تخطيت هذه الخطوات منذ ثلاثة أعوام، لكنت قد تعينت قبل ثلاثة أعوام ولكن قد وفرت على نفسي الكثير، أما الآخرون فهم أذكياء مثلي تماماً من غير حاجة للذهاب إلى روما أولاً».

احتاج فرويد بعض الوقت للتغلب على عزة النفس التي منعته من طلب المساعدة من أصدقائه. وفي السنوات اللاحقة تحالفت شجاعته مع ذرائعيته السياسية في تأمين البقاء على قيد الحياة لأفكاره ولحركة التحليل النفسي.